اللغـة العربيّـة في الـجزائــر

(على عهد الاستعمار الفرنسيّ)

د.عبدالملك مرتاض

(جامعي)

لو كنّا قادرين على إحصاء ما كُتب عن موضوع اللّغة العربيّة في الجزائر، على عهد الاستعمار الفرنسيّ، لَنَفِدَ بحرٌ تُمِدّه بحورٌ من المداد، بل لَنفِد الكلامُ نفسُه. وربما نحن نعمل بمقولة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: «لولا أنّ الكلام يُعاد، لَنَفِدَ». فلْنُعِدْ، إذن، ما كنّا قلناه، ولْيُعِدِ الكتّابُ الآخرون، ما كانوا، ربما، قالوه، هم أيضاً؛ وذلك من باب أنّ في الإعادة، إفادة!... ومن يدري؟ فلعلنا أن نأتِيَ اليوم ببعض الجديد!...

لقد كان هذا الاستعمار، فيما عرفْنا شيئاً من سيرته في الجزائر، يتلذّذ تلذُّذاً عجيباً بإيذاء كلّ مَن تسوّلُ له نفسُه تعلُّمَ العربيّة في الجزائر على عهده البئيس، بلْهَ تعليمَها والنّضْحَ عنها، والتمسّكَ بقيم العروبة مبدأً.

ولو أرسلنا العِنان لهذا القلم، ليكتبَ عن هذا الموضوع الْمُوقَرِ بالآلام، ولكن المعبَّق بالنّضال في الوقت ذاته، لَخَشِينا أن يتّسع ذلك لمجلّدات ضِخام، وأسفار عِظام. والآية على ذلك أنّ الدكتور محمد العربي ولد خليفة، رئيس المجلس الأعلى للغة العربيّة وقَفَ، مشكوراً، عدداً كاملاً من مجلّة «اللغة العربيّة» لهذا الموضوع الوطنيّ الذي ارتبط بالدّفاع عن قيم الشعب الجزائريّ الذي أمسى مكوِّناً عظيماً من ثوابته، ورُكْنا مَكيناً في هويّته.

وإذا كنّا نحن، وكأنّنا واقعون، في هذه المقالة، تحت استفزاز العاطفة الجائِشة التي لم نستطع كبْحَ جماحِها، ولا قمْعَ غُلوائها؛ فلا أقلَّ من أنّ زملاءنا من الباحثين والكتّاب الجزائريّين، أحسن اللّه إليهم،

سيعوّضون نقْص مقالتنا هذه من خلال كتاباتهم النيّرة والرصينة التي سيُمِدّون بها، حتماً، هذا العدد من مجلّتنا الجميلة الغرّاء. فهم، إذن، وذاك.

أمّا نحن فليس سبيلنا، هنا والآن، إلاّ الوقوع تحت سلطان النقص والقصور، وربما الإبْلاس والسُّمود.

لكنْ عمَّ نتحدّث من أمر هذي العربيّةِ، اليومَ، في الجزائر، على عهد الاستعمار الفرنسيّ الدّابر؟ فكلّ موقف وقَفه عالم من العلماء، أو زعيم من الزعماء الجزائريّين، هو موقف ملطَّخ بالدماء اللّغويّة، مشحون بالهموم، بل هو مَدْرَجَةٌ للنّفي والهوان، بل هو مَجْلَبَةٌ للنكال والعذاب؟ فكم سُجِن في حقّ هذه العربيّة من كان يعلّمُها الصِّبْيَةَ الجزائريّين! وكم نُفِيَ من كان يودّ لو تقوم هذه اللّغة في المدارس الفرنسيّة بالجزائر ولو إلى جانب الفرنسيّة! بل كأيِّنْ من كاتبٍ بها قُتِلَ! أم ننسَى اغتيال أحمد رضا حوحو، والربيع بوشامة، وعبد الكريم العقون، والعربي التبسيّ، والأمين العموديّ، وسجْن الإبراهيمي، ومحمد العابد الجلاّلي... ومئات طلاّب معهد ابن باديس بقسنطينة الذين بلغ عددهم في أكتوبر من سنة أربعٍ وخمسين وتسعمائة وألف ثلاثةَ عشرَ وتسعَمائة طالبٍ، استشهدوا في مَعاظِمهم أثناء ثورة التحرير، ومع بعض أساتذتهم أيضاً؟

أم سيقولون لنا لا أبَا لهم: انْسَوُا الهمَّ ولا تنبُشوا قبرَه؟ ودَعُوا الخوض فيما يثير العواطف، ويستفزّ النّفوس... وإمّا لاَ، فاذهبوا بهذا القبر، إلى مكانٍ قَفْر؛ وهناك سائلوهُ غِرَارَ العُمْر! وتناسَوُا التاريخ ولا تذْكُروا من أحداثه حديثاً؟

نحن لا نريد أن ننبُش ماضياً مُوقَراً، حقّاً، بأثقال الظلم والاضطهاد، ومُثْقَلاً، فعلاً، بألوان النكال والعذاب؛ لأنّنا نعلم أنّ الأحقاد -نُقِرّ بذلك- لا تبني حضارة، وأنّ الضغينة لا تقدّم شعوباً... لكنْ أليس من حقّنا وواجبنا معاً أن نَصِف -على الأقلّ- الأحداث التي وقعت لشعبنا وكان لها ضحيّةً: حدَثاً، حدثاً؛ ونذكر المواقف، موقفاً، موقفاً، دون السّعْي إلى إضفاء الغِلّ عليها؛ وذلك لتعتبر بها الأجيال، ولِنُنْصف أولئك الذين لم يبخلوا بدمائهم ولا بأموالهم في سبيل تحرير الجزائر من ربقة ذلّ الاستعمار، عكس جيلنا هذا المتقاعِس المتناعس، الذي لا يودّ أن يأبَه لشيء، ولا يضحّي بشيء، من أجل هذا الوطن؛ وإنّما يحرص على الْتِهام ثمرات الشجرة التي غرسها الشهداء!؟... تهارُشٌ على الكراسيّ، وتناحُرٌ على المناصب... ثمّ لا شيء!...

لكنْ هل نَغُلّ أيدِيَنا، ونُلْجِم ألسنتَنا، ونكبَحُ أقلامنا، فلا نذكر الذين فعلوا بعربيّتنا وبجزائرنا وبشعبنا الأفاعيلَ المنكَرة، وصبّوا عليه الإهانات صبّاً عنيفاً، إلاّ بخير!؟ وكيف نُطالَب نحن بنسيان تاريخنا من حيث هم لا ينسَوْن تاريخهم أبداً، بل يستظهرونه حدَثاً حدثاً؛ ولا ينسَون مسيراتهم الاستعماريّة أبداً، بل

تراهم لا يَنُونَ يتباهَوْن بها فيذكرونها شِبراً شبراً، ويضمّخون بها أطراف الزمان عِطراً؟... حتّى إذا تحدّث متحدّث منا، وعلى استِحياء، وبصوت خافتٍ، وفي قلّة من الكرام، وفي غبَشٍ من الظلام، وبِأَخَرَةٍ من الزمان، قيل له: اسكتْ، لا أُمَّ لك، فلستَ إلاّ «شوفينيّاً» صغيراً: ضيّقَ النظرة، متعصّب السيرة، أعمى البصيرة...!؟ وأين أنت من استقبال المستقبَل بالحلم الضّائع؟ ثمّ أين أنت من الشُّرَأْبِيبَة إلى حياة جديدة نضَّاخَةٍ بالأمل الوديع؟... دعْ عنك التاريخَ فليس إلاّ حكاياتٍ تُحكَى، وأخباراً تُرْوَى، ثمّ من وراء ذلك لا شيء!...

وكذلك نحن في أمرنا مع تاريخنا الذي تريد طائفة من أبناء جلدتنا إمّا تشويهَه بسُوء التّأويل، وإمّا نسيانَه بالضّرْب عنه صفحاً نهائيّاً ليحلُوَ لها ما يحلو من هذه التَّفاهات التي ورِثناها عن الثقافة الاستعماريّة، ومنها بُغْض الذات، والاستهانة بكلّ ما هو وطنيّ، ولو كان عظيماً؛ وتمجيد كلّ ما هو أجنبيّ، ولو كان حقيراً!...

أن نكتب، اليومَ، عن العربيّة على عهد الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر، لا نستطيع أن نتجرّد من العاطفة الوطنيّة بحكم أنّا ننبش في موضوع هو جزء من الْهوِيّة، وهو عنصر من الثوابت، وهو ركن من الذات؟

ولقد تحدّثنا، وتحدّثوا، عن العربيّة وجمعيّة العلماء، وعن العربيّة والأحزاب، وخصوصاً حزب الشعب الجزائريّ الذي استحال إلى حزب انتصار الحريات الديمقراطيّة، وعن العربيّة والزوايا النائية، وعن العربيّة والجوامع التي كانت تغلَّق لمجرّد أن يعلِّم فيها حافظُ القرآن الحروف العربيّة للأطفال، وبطريقة بدائيّة، ولو كان ذلك يتمّ على بالي الحصير، وبين مسودّاتِ الجدران، وفوق أرضيّة متربة مغبرّة... ثمّ عن العربيّة والفلاّحين والذين كانوا يذهبون إلى الأسواق، ويشهدون المقامات... ثم أخيراً عن العربيّة وثورة التحرير...

وعلى الرغم من أنّنا تحدّثنا عن بعض ذلك من قبلُ وتحدّث آخرون أيضاً، فإنّا وحيث أتاحت لنا مجلّة «اللغة العربيّة» أن نعود إلى هذا الحديث، فلْنَعُدْ! ولكنْ لِتَكُنْ عودتُنا إليه جَذَعَة! من أجل ذلك نودّ اليوم كتابة حديث عن العربيّة من حيث هي لغة الشعب الجزائريّ في بواديه وقُراه، وأسواقه وحقوله، ومساجده ومواقفه العامّة، وحيث كان يتواجد الناس، في شكل شهادة تاريخيّة...

لكنْ لماذا نتحدّث عن هذا؟ ألأنّ مجلّة «اللّغة العربيّة» دعتْنا إلى الكتابة فيه؟ حقّاً إنّ ذلك وارد. ولكنّ الذي هيّأ لنا الْمَحَجّة، وأنطقَنا بالْحُجّة، ولأكُنْ صريحاً مع القارئ الكريم، ولو على هون ما، هو شيء آخرُ كان دفيناً في النّفس حتّى جاء هذا اليوم لِنُبْدِيَه ونبْعثَه... ذلك بأنّي قرأت يوماً في جريدة تنطق بلغة الإفرنج في الجزائر، ومنذ بضعِ سنواتٍ خلتْ، فقد زعمت تلك الورقة التي تصدر بمدينة الجزائر ما

معناه: لقد كان المسؤولون الجزائريّون في مطلع عهد الاستقلال من الجهل والضلال، والرّعونة والحرمان، بل كانوا من التعصّب والتّعسّف، بحيث اغتصبوا حقّ الجزائريّين بأن فرَضوا عليهم اللّغة العربيّة فجعلوها المادّة الثانية في الدّستور... وما كان ذلك منهم إلاّ قهراً للجزائريّين وغصْباً، فكان جُرْماً إمْراً، وإثما إدّاً، وقراراً نُكْراً! ولو صدَقوا الجزائريّين النّيّة، وكشفوا عن طواياهم طويّةً، طويّة، وأنصفوهم السلوك، لكانوا جعلوا لسانهم العجميَّ لهم لساناً، وتاريخَ سَوائِهم لهم تاريخاً!... ولقد كَبُرتْ كلمةً تخرج من أفواههم! ولقد فظُعت فكرة تقبَع في غَيَابات أهوائهم! فمالَهم، ويْحَهم، انفصلوا عن سيرة آبائهم وأجدادهم!؟ فهل كان يجوز للجزائريّين أن يقبَلوا العجميّة لساناً وهم الذين كانوا، في كثير منهم، يرفضون أن يُرسلوا أبناءهم إلى مدارس الإفرنج -حين كانوا يحكموننا بغير الحقّ- مخيَّرين غيرَ مُجْبَرين؟ يبدو أنّ هؤلاء ليسوا إعلاميّين صغاراً في السّنّ فحسبُ، ولكنّهم صغار في العلم والتاريخ أيضاً، فجهِلوا ما كان ينبغي لهم أن يعلَموا، فلم يفعلوا...

أكان يجوز إجبار الجزائريّين، في صيف عام اثنين وستين وتسعمائة وألفٍ على أن يكونوا أعاجمَ يرطّنون بلغة غيرِ لغتهم، بعد أن رضعوا لبان هذه اللّغة الجميلة قريباً من أربعة عشر قرناً من التاريخ، وذابتْ في عواطفهم، وأمسَوْا يصلُّون بها، ويحلمون فيها، ويغنّون بأشعارها الشعبيّة والفصيحة معاً؟ وهل وجدنا جزائريّاً في التاريخ، غنّى بغير العربيّة والأمازيغيّة؟ حتّى اليهود الذين كانوا يزعمون أنّهم جزائريّون كانوا يتغنّون باللّغة العربيّة...

وآيةُ تغلغُل اللّغة في النفوس أن يحلم بها الأطفال، ويتغنّى بها النساء والرجال. وكذلك كان الأمر. أم رأيتم جزائريّين يتغنّون بهذه الدّخيلة الذّليلة في حقولهم وحلق أسواقهم، وأيّام ثوراتهم؟...

وهل بمقدور أصحاب هذه الجريدة، ومن ورائهم أصحابهم المدسوسون، أن يتبنَّوْا هذه اللّغةَ الأعجميّة الآن لهذا الشعب فيُفْلحوا في مسعاهم الخائب؟ وهل يمكن لجزائريٍّ، أن يتفاهم مع جزائري آخر، من مغنية إلى تبسّة، ومن البويرة إلى إليزي، بغير اللّغة العربيّة؟ إنّنا نتحدّاهم إن كانوا قادرين على إثبات عكس ما ندّعي.

وإذن، فما حمَل هذه الورقة الناطقة بلغتهم أن تتطاوَل على التاريخ الوطنيّ، ولا تسْتَحِي؟ وما بالُها انقلبتْ من الدّفاع عن الهويّة الوطنيّة -وهي الغاية التي استوجبتْ قيامَها، افتراضاً على الأقلّ- إلى مهاجمة هذه الهويّة، لمجرّد أنّها ترطّن بلغة أعجميّة رديئة، معظمُ ألفاظها من الْمَدِين في الاستعمال لدى قريفيس (Grevisse)؟ أم لم يكن أولى لها أن تسكت ما دامت غيرَ قادرةٍ على الدّفاع عن ثوابت الهوية الوطنيّة؟ أم كانت تريد منّا أن نَمْتَسِخ قروداً، وأن ننسلخ عن جلودنا قياماً وقُعوداً، وأن نلعن أنفسَنا وأجدادَنا، لكي ننقلبَ إلى لغة أعجميّة خاسئين!؟ ولو دلّت الظّواهرُ على مكامن السّرائر لكانوا ربّما ترَبُّوا

علينا، ونَحَلُوا أَثْلَتَنا، لأننا نصلّي ونصوم!... لأنّ العربيّة ليست إلاّ مُمَاثِلاً لقيمة غائبة ماثلة معاً: هي هذا الانتماء الحضاريّ بِكلّ أثقاله وأبعاده وأعماقه الروحيّة والمعنويّة...

وإنّما ودِدْنا إدراج المنحى الشفويّ في استعمال اللّغة العربيّة في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسيّ، لِنُثْبت أن العربيّة، لِمن كان في ذلك مُرتاباً، أو كان للتاريخ جهولاً، هي التي كانت سائدة في أواخر عهد الاستعمار الفرنسيّ بالجزائر، كما كانت سائدة في أوائله؛ (ولا نريد أن نتحدّث عمّا قبله) ولنُثبتَ، أيضاً، أنّ اللّغة المكتوبة لم تكن إلاّ مُماثِلاً (إقونة) للّغة الشفويّة، أو اللّغة المستعملة بين الجزائريّين في حياتهم الاجتماعيّة... وإذن، فلم يكن باستطاعة أيّ حزب، أو أيّ حاكم جزائريّ، أو أيِّ قوّة في العالم، أن تُقِرَّ لغةً من لغات أهل الأرض غير العربيّة في الجزائر في فجر الاستقلال. ذلك بأنّها كانت، ولا تبرح بنعمة الله، هي لغةَ الشعبِ الجزائريّ، مضافاً إليها الأمازيغيّة التي ظلّت تؤاخي العربيّة وتؤاخيها، فاستعارت العربيّةُ، الشفويّة خصوصاً، مئات الكلمات منها فأدخلتها في استعمالاتها الفلاحيّة والمطبخيّة وغيرها، ولا تبرح فيها قائمةً إلى يومنا هذا تفاعُلاً وتخاصُباً. كما استعارت الأمازيغيّة آلاف الكلمات من العربيّة لتُغنيَ بها تعابيرها، ولترقَى في قدرتها على التّعبير عن أدقّ العواطف، وأكبر المواقف طوعاً لا إكراهاً... فظلّتا كندْمانَيْ جذيمةَ الأبرش، تكوّنان معاً، إلى جانب الإسلام، الهويّة الوطنيّة الثلاثيّة الأبعاد... لكنْ ما بالُ هذه الْعِلْجَةِ الدّخيلة الذليلة عليهما لا تَنِي تُفسد العلاقة الحميمة بينهما، وتذكو النّار في تضافرهما؟... ألم يكن أولى لها أن تظلّ أجنبيّةً وكفى؟ ومتى كان يحقّ للأجنبيّ، إلاّ إذا كان محتلاً مرفوضاً، أن يحكُم في القضايا الوطنيّة الكبرى والصغرى؟ الأجنبيّ يظلّ أجنبيّاً ولو كان مقيماً في دار أبيه!...

وإذن، فحين قُرّرت العربيّة في الدستور الوطنيّ إنّما كان ذلك كلّه لأنّ الجزائريّين على عهد الاستعمار الفرنسيّ، وقبله، كانوا يتكلّمون العربيّة بألسنة طليقة، فكانوا يتعبّدون بها في المساجد، وكانوا يذكرون اللّه بها في حلقات الذكر والحضرة في الزوايا؛ كما كان الفلاّحون الجزائريّون يتغنّون بها في الحقول وهم يحصدون زُرُوعهم، ويجْنُون تمور نخيلهم، كما كانت الإدارة الاستعماريّة الرسميّة نفسُها تخاطب بها المواطنين الجزائريّين في المقامات والأسواق.

وفيما يلي تركيز على استعمال اللّغة العربية لدى الهيئات الوطنيّة والشعبيّة والإدارية على عهد الاستعمار الفرنسيّ.

أولاً: اللغة العربيّة والأحزاب الوطنيّة الجزائريّة.

لقد نعلم أنّ أوّل محاولة وطنيّة منظّمة وجادّة لطلائع الحركة الوطنيّة -بعد إخماد نيران أكثر من عشر حركات مقاومة بالقوّة- كانت في عقابيل الحرب العالميّة الأولى، وقد قادها الأمير خالد، فأنشأ جريدة الإقدام عام **1919** باللّغة العربيّة؛ فكانت هذه الجريدة الوطنيّة منبراً للنّخبة الوطنيّة فنُشر فيها كثير من القصائد الشعريّة، والمقالات الأدبيّة الرفيعة النسج.[1]

ثمّ لم يلبث أن أسّس أحمد مصالي الحاج -مارس 1926- مع مجموعة من الوطنيين من المغرب العربيّ كلّه تنظيماً أطلقوا عليه «نجم إفريقيا الشماليّة» الذي خلُص في مارس 1927 للوطنيين الجزائريّين وحدَهم تحت تنظيم سياسيّ جديد أطلقوا عليه: «حزب الشعب الجزائريّ» الذي أسس جرائد منها جريدة «الشعب» التي رأس تحريرها في أوّل عدد صدر منها مفدي زكرياء، ولكنّه اعتُقل وخلفه غيره ليشرف على العدد الثاني، ليُعتقلَ هو أيضاً![2]... وحين نتحدّث عن مفدي زكرياء، فإنّما نتحدّث عن العربيّة في أنقى ألفاظها، وأرقى استعمالها، وأجمل نسْجها وإيقاعها... وما كان لحزب الشعب الجزائريّ أن يختار اللّغة العربيّةَ ليخاطب بها المواطنين، إلاّ لأنّه كان يعلم أنّه يخاطب الجزائريين بلغتهم. ولو كان مقتنعاً بأنّه قادرٌ على تبليغ رسالته السياسيّة بلغة أعجميّة -بلغة أخرى- لكان اصطنعها فخاطبهم بها، لأنّ المدار هنا على الفعالية وثبوت المصلحة. ولكن كيف كان يكون ذلك وزعماؤه يعلمون أنّ اللّه ما أرسل من رسولٍ إلاّ بلسان قومه؟... فكيف إذن ينجُم زعيم سياسيّ ويتوغّل في قلوب مواطنيه وهو يخاطبهم بغير اللّغة التي يفهمون ويُحبّون؟...

ولِلَّذِينَ يرَون من مُنكري التاريخ والوطنيّة، أنّ حزب الشعب لم يكن إلاّ مجرّد حزب للشعب، وكفَى!! نقول لهم: فأين أنتم من النخبة التي تُقِرّون بفضلها عندكم؟ وإذن، فما القول في فرحات عباس الذي كان يرى في بعض سنة ستٍّ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ أنّه بحث عن الجزائر في كلّ مكان فلم يعثر لها على أثر، ولا قرأ لها في التاريخ أيّ خبر... في حين أنّه هو الذي أسس جريدة «الوطن»، في الأعوام الأربعين، باللّغة العربيّة، بعد أن عدل عن فكره السياسيّ القديم، واقتنع بضرورة تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسيّ؟

---

1. ينظر عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنيّة في الجزائر، ج.2.

2. أصدر هذه الجريدة الأسبوعيّة باللّغة العربيّة حزب الشّعب الجزائريّ في 27 غشت 1937 .وكان يرأس تحريرها مفدي زكرياء. ولكن بمجرّد صدور العدد الأوّل منها اعتُقل مفدي زكرياء، رئيس تحريرها، مع أربعة من مناضلي حزب الشّعب. ثمّ صدر العدد الثاني من هذه الجريدة فاعتُقل رئيس تحريرها الجديد وهو محمّد قنانيش مع مناضلين آخرين وأودعوا سجن بربروس.

ويبدو أنّ هذه الجريدة تعطّلت، فلم يصدر منها، إلاّ عددان اثنان، نتيجة لاعتقال رئيسَيْ تحريرها الأوّل والثاني معاً، بالإضافة إلى اعتقال أكثر من عشرة مناضلين ممّن كانوا في الهيئة العليا لحزب الشّعب الجزائريّ.

بل لا بدّ للتعريج على البرنامج السياسيّ لحزب الشعب الجزائريّ، كما كان ينضَحُ عنه مصالي الحاج عام ستّةٍ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ، أي منذ قريبٍ من سبعين عاماً؛ ففي نداء وجّهه مصالي من باريس إلى الشعب الجزائريّ –بلغة عربيّة عالية لا يخاطب بها أيّ حزب جزائريّ الآن مناضليه!– ذكر فيه أنّ العربيّة هي التي ستكون رسميّة للبلاد قائلاً بالحرف: «(...) نحن نريد أن تكون لغتك العربيّة لغةً رسميّة بالبلاد»[1].

فلم تكن، إذن، جمعيّة العلماء وحدَها هي التي تدافع عن مكانة اللّغة العربيّة، بل حزب الشعب الجزائريّ الذي انبثق عن حركة العمّال الجزائريين بالْمُهاجَر الفرنسيّ، فما ذا يقول القائلون الذين كانوا يزعمون أنّ الجزائر لم تتّبع الطريق اللغويّ السّويّ في سنة **1962** بتبنّيها العربيّة لغةً رسميّة للجزائريّين؟ ألم تكن العربيّة وترسيمها في الحياة العامّة ضمن برنامج حزب الشعب الجزائريّ، أبي الأحزابِ والتنظيمات السياسيّة الجزائريّة كلّها؟ أم يعتقد معتقد أنّ هذه اللّغة نزلت على الجزائريّين من المريخ، فهي غريبة عليهم، وأنّ اللّه قذف في قلوبهم هذه الدّخيلة الذليلة فهي لهم كالبلسم والعناية، وحرمهم منها المسؤولون الوطنيّون حين حرّروا الدستور الجزائريّ الأوّل؟!

ولا نريد أن نتحدّث عن سيرة جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين مع اللّغة العربيّة، فلا أحسب إلاّ أنّ مقالة واحدة على الأقلّ، في هذا العدد ستخصّص لذلك، لشهرة مواقفها، وثبوت مقاماتها، في نضالها من أجل اللّغة العربيّة التي أسست بها خمس صحف على الأقلّ، كما أسّستْ أيضاً مدرسةً عربيّة اللسان في كلّ مدينة من مدن الجزائر. وكانت الرياضيات، والعلوم، والجغرافيا، تُعلَّم في هذه المدارس باللّغة العربية، وهي التي أسست أيضاً معهد ابن باديس بقسنطينة عام 1947 للتعليم الثانوي بالعربيّة، وقد بلغ عدد طلاّبه في السنة الأخيرة من حياته، كما سبقت الإيماءة إلى ذلك، تسعمائة وثلاثة عشر طالباً... وكانت صحف جمعيّة العلماء مفخرة من مفاخر البيان العربيّ في الجزائر، وقد تعرّفتُ شخصيّةً ثقافية مغربيّة كبيرة بمدينة الرباط في صيف سنة ثلاثٍ وسبعين من القرن الماضي فبدأ يستظهر لي نصوصاً من مقالات محمد البشير الإبراهيمي التي كان يدبّجها في البصائر الثانية عن الشيخ عبد الحي الكتّاني...

والحقّ أنّ عامّة الهيئات الوطنيّة السياسيّة كانت تتّخذ لها من اللّغة العربيّة لساناً تعبّر به، وأداة لتبليغ رسالتها.

بل ما القول في أنّ الفرنسيين أنفسَهم أصدروا جريدة «المبشّر» (وهي ثالث جريدة باللغة العربيّة في تاريخ الصحافة الناطقة باللّغة العربيّة (1847–1926) –وما كان أولى لهم أن يطلقوا عليها عنوان

1. نداء من رئيس حزب الشعب الجزائريّ، مكتوب في 12 نوفمبر 1936 . ينظر جريدة الصباح، الجزائر، ع. 205 يوم الاثنين 20 سبتمبر 2004، ص.8.

«المنذر»!- وقد أصدروها باللّغة العربيّة لمخاطبة الجزائريّين؛ وذلك على الرغم من أنّها لم تكن تُحَرَّر إلاّ بلغة عربيّة هزيلة، وتعابير رديئة، أسوأ من العامية نفسها![1]... وإنّ إبقاء الولاية الفرنسيّة العامة بالجزائر على هذه الجريدة باللّغة العربيّة إلى سنة 1926 يدلّ على عروبة الجزائر، وأنّ الجزائريّين كانت العربيّة هي لغتَهم الأولى، وكان من العسير على الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة التواصلُ معهم باللّغة الفرنسيّة، وإلاّ لكانت الإدارة الاستعماريّة خاطبتهم بلغتها، منذ الوهلة الأولى، واستراحتْ...

بل ما القول في أنّ بعض المصارف في الجزائر (1906) كانت تصدر السندات الماليّة باللّغة العربية؟ ولا يقال إلاّ مثل ذلك في السندات التي كانت تُعطَى للحجّاج الجزائريّين حين كانوا يذهبون إلى البقاع المقدّسة...

بل ما القول أيضاً في أنّ الإدارة المحلّيّة (إدارة القائد والشيوخ) كانت تستعمل العربيّة لساناً لها، فكان الجزائريّون يستخرجون عقود الميلاد باللّغة العربيّة التي كان يكتبها موظّف رسميّ في تلك الإدارة كانوا يطلقون عليه لقب «الخوجة» (وهي كلمة تركيّة). فالخوجة هو الذي كان يتولّى تسجيل المواليد والوفيات باللغة العربيّة (ونحتفظ بوثيقة تثبت ذلك)، كما كان المتعاملون في البيع والشراء يستكتبون كلّ عقودهم باللّغة العربيّة التي كان معترَفاً بها لدى القاضي الرسميّ الذي كان الفرنسيّون هم الذين يعيّنونه؟ ولم تحلّ اللغة الأجنبيّة في هذه الإدارة، مكان اللّغة العربيّة، إلاّ بعد منتصف القرن العشرين، في إدارة العروش، لإيهام الجزائريّين بأنّ الاستعمار باقٍ في الجزائر، ولا أمل في دحْره؛ وذلك بعد اندلاع ثورة التحرير...

وكان القائد حين يخاطب الناس في الأسواق الأسبوعيّة الحاشدة كان يخاطبهم، وقل إنّه كان يشتمهم بأقذع الشتائم، وينبزهم بأسوإ الألقاب: باللّغة العربيّة.[2] أمّا «الحاكم» الإداريّ الفرنسي، حين كان يضطرّ إلى مخاطبة النّاس في الأسواق والمقامات، فكان يخاطب الجزائريّين حين يخاطبهم باللّغة الفرنسيّة، ولكن عن طريق مترجِم كان يتقن العربيّة الفصحى إتقاناً سليماً، فكان يخاطب عامّة الناس في الأسواق بالفصحى! ولم نسمَع أحداً من أولئك الشهود اشتكى يوماً قطّ أنّه لم يفهم ما كان ينقله المترجم بالفصحى. فالفصحى إذن كانت تملأ الأسواق الجزائريّة في الأرياف والبوادي!... ويدور الزمن دورته، فتمسي التلفزة الوطنيّة تخاطب مشاهديها بالعامّيّة والأعجميّة!... وكلّ من هبّ ودبّ أمسى يرطّن في المآقط العامّة بهذه الدّخيلة الذليلة... وهذه من أعظم النكسات اللّغويّة في تاريخ هذا الوطن...

في حين أنّ ممثّلي الأحزاب الجزائريّة على عهد الاستعمار الفرنسيّ لم يكن أحد منهم يستعمل كلمة واحدة باللّغة الأعجميّة، بل كانوا يخاطبون الناس في الحملات الانتخابيّة، بعد الحرب العالميّة الثانية،

1. ينظر محمد ناصر، الصحف العربيّة في الجزائر، ص.12، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، 1980.
2 . ينظر عبد الملك مرتاض، الحفر في تجاعيد الذاكرة: (الفصل الخاصّ بالأسواق).

باللّغة العربيّة. وكانت اللّغة التي يخاطبون بها الناس في الأسواق أقرب إلى الفصحى منها إلى العامية. وكان المناضلون من حفظة القرآن في الغالب هم الذين يتولّون ذلك... ولا نقول إلاّ بما شهدنا في الأسواق التي كنّا نتردّد عليها أيّام الصِّبا.

ثانيا: لغة الزوايا الجزائريّة

الجزائر أرض الروحيّات. والشعب الجزائريّ بمقدار ما يستفزّه الطّرب والإيقاع، يستهويه الوعظ والإرشاد، ولذلك تجد أقرب الهوى إليه أن يخاطَب بالعربيّة، وأن يُتحدَّث إليه باسم الإسلام. وكانت الزوايا تشكّل طائفة اجتماعيّة كبيرة، فكانت تلك الزوايا تخاطب مريديها باللّغة العربيّة في وعظها وإرشادها وتعليمها وأشعارها الصوفيّة التي كانت تُنشدها مع «الجلالة» في الحضرة... وكان أولئك المريدون –في مَعاظِمِهم– أمّيّين لا يكتبون ولا يقرءون، ومع ذلك فقد كانوا يفهمون العربيّة الفصحى ويتذوّقونها إلى حدّ الجذب عليها حين يستمعون إلى أشعار أبي مدين، والحرّاق وغيرهما من شعراء الصوفيّة حين كان صوت المترنّم بها يستفزّهم فيجذبون.

بل لقد حدّثني من أثق فيه، ولا يزال حيّاً، أنّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي حين ذهب إلى تلمسان –في نهاية الأعوام الثلاثين من القرن الماضي– كان يقدّم دروسه باللّغة العربيّة الفصحى، فاستصعب بعض من كانوا يحضرونها لغةَ الشيخ، فتلطّفوا له في الطلب لكي يقدّم دروسه فيهم باللّغة العاميّة كيما يستطيعوا الفهم عنه على النحو الكامل. فاستجاب لهم. ولكن ما هو إلاّ أن انقلب الشيخ إلى العامّيّة حتّى استسمجوها فاستحَوْا أن يطلبوا إليه العودةَ إلى تدريسهم بالفصحى... حتّى تلطّف له أوقحُهم فكشف له عن نيّة القوم، فعاد الشيخ إلى سيرته الأولى من مخاطبتهم بالفصحى.

ثمّ كانت خُطب الجمعة في أنأى البوادي وأعمق الأودية في الجزائر على عهد الاستعمار الفرنسيّ، وخطبتا العيدين، باللغة العربيّة، ولم يكن أحدٌ يشتكي من المتلقّين من أنّهم لا يفهمونها، أو أنّهم كانوا أُجبِروا عليها، وكان من الأولى أن يتكلّف الشيوخ والأئمة مخاطَبَتَهم بلغة فولتير؟!

ثم كانت الاحتفالات بالمولد النّبويّ، في البوادي الجزائريّة وأريافها (بحكم أنّي ابن بادية عشت فيها إلى سنّ الرشد، وكنت أشهد الْمَشاهد، فأنا –أكرّر ذلك– على سبيل الشهادة)، تجري باللّغة العربيّة فكان الرجال يُنشدون ويتغنّون بالأشعار الشعبيّة التي تمدح النبيّ عليه الصلاة والسلام، وكذلك كان يفعل النساء اللواتي كنّ منتظماتٍ في طرق صوفية، بتلك المناسبة الدّينيّة، بالإضافة إلى حفَظة القرآن الذين كانوا يُنشدون، بترنُّمٍ، بُردة الشيخ محمد بن سعيد البوصيري (البربريّ الأصل)...

فأين كانت لغة الاستعمار من كلّ ذلك؟ وهل يمكن بيولوجيا غسْلُ الْمَلَكة اللّسانيّة من أمّة كاملة بتغيير لسانها الطبيعيّ إلى لسان أجنبيّ عنها؟...

ثالثاً: لغة الفلاّحين الجزائريين

كان الفلاّح الجزائريّ، على الفقر واضطهاد الاستعمار إيّاه، من أرقَى الفلاّحين على الأرض؛ فكان الواحد منهم له لباسان اثنان على الأقلّ: لباس العمل، ولباس الاحتفالات والأسواق والأعياد والْجُمَعِ والمواقف العامّة. وكان كلّ لباس يَسْتميز بخصائص وظيفته. وكانت عربيّتهم أقرب إلى الفصحى منها إلى العامّيّة، فلم يكن ينقصها غير الإعراب. وكانوا كثيراً ما يسوقون أمثالاً سائرة في أحاديثهم ومحاوراتهم. والذي نأسف له أنّ ذلك العهد لم يكن فيه مسجِّلاتٌ؛ وإذن لكنّا سجّلنا كثيراً من أحاديثهم... للبرهنة بها على ما نزعم لدى الْحِجَاج. وحتّى المصطلحات التي كانوا يصطنعونها في زراعتهم وحصادهم كانت فصيحة في معظمها، مع تطعيمها ببعض المصطلحات الأمازيغيّة الأصل، وهي، في الحقّ، قليلة... فكانوا يستعملون المنجل، والحصاد، والدِّراس، والمحراث، والحرث، والرَّحْبَة (للبيدر)، والمذراة، والفأس، والقادوم، والشبكة، والقفّاز، والصَّبّاعيّات (وهي عبارة عن قصبتين تُتَّخَذان في الخنصر والبنصر لدى الحصاد لوقاية الأصبعين من أذى المنجل الذي قد يقطع أطرافاً منهما عند التهامه سُوقِ الزرع، لولاهما...)، وهلمّ جرّاً.

ولقد كنّا نحصد مع الحصّادين فكانوا لا يزالون، حين تشتدّ بهم الهاجرة، وتتوقّف الشمس في كبِد السماء فلا تكاد تَريم، يعمِدون للتخفيف من تلك المعاناة بارتجال أغانٍ شعبيّة يردّدونها -بأصوات بدويّة جهوريّة تُسمع في العادة على بُعد أميال - جماعات، جماعات في أنأى البوادي، وأعمق الأودية، وهم يزأرون بها كالأسود. وكانت تلك الأغاني أقرب إلى الفصحى منها إلى العامّيّة على الرغم من أنّ الفلاّحين الجزائريين في نسبتهم العالية كانوا أميين لا يكتبون ولا يقرءون. كما كانوا يتغنّون بها في أعراسهم واحتفالاتهم. أم لم يكونوا يردّدون في حفلات أعراسهم نشيداً جزائريّاً قديماً، فكان الذين يردّدونه أمّيّين بيّني الأمّيّة، وإنّي واللّه لا أشهد إلاّ بما رأيت وسمعت، ولا أقول إلاّ بما علمت، ومما لا أزال أحفظ من هذا النشيد الذي كان الشباب يُدخلون به العريس، وكذلك كانوا يطلقون عليه ولا يزالون إلى اليوم «شبابي»، وهي لفظة فصيحة تنقطع دونها أعناق الرجال؛ كانوا يردّدون في أصوات جزائريّة جهوريّة تنبجس رجولةً، وتنضح أريحيّة وكرماً، وفي لحن جميل يستفزّ كلّ النفوس الخامدة، ويبعث اليقظة في كلّ القلوب الجامدة:

ارحَمْنا يا اللّه وارحم شبابي   شبابي يفنَى تحت التراب

ارحمنا يا الله وارحمْ والدنا اللّي ربّونا وارضوا علينا

ارحمنا يا اللّه وارحم جدودي الساكن اللّيلة تحت اللّحود

صلّوا وسلّم على المصطفى مولاي محمد جدّ الشُّرفا

حقّا إنّ بعض الألفاظ في هذه الأبيات الشعبيّة ليست من الفصيح، ولكن يا حبّذا لو كان شبابنا اليوم في المدن، بل شعراؤنا الشعبيّون، يرقَون بلغة أشعارهم إلى هذا المستوى.[1]

وكان الفلاحون الجزائريّون يستمعون في الأسواق، كما سبقت الإيماءة إلى ذلك، شتائم أعوان الاستعمار إيّاهم بالعربيّة، كما يستمعون إلى خطب الوطنيّين بالعربيّة، كما كانوا يحضرون مجالس الذكر في الحضرة الصوفيّة، ومجالس العبادة في المساجد للصلوات والتراويح، فلم يكونوا يستمعون إلاّ إلى العربيّة... وكانوا يفهمون المعنى العامّ دون عناء...

1. ينظر عبد الملك مرتاض، العاميّة الجزائريّة وصلتها بالفصحى، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.